الأوقاف الإسلامية وغير الإسلامية ودورها في البناء الحضاري

Islamic and non-Islamic endowments and their role in civilizational building

بحث تقدم به

أ. د. أحمد سامي شوكت

Prof. Ahmed Sami Shawkat

prophesorable@gmail.com

د. محمد أحمد عجاج

Dr. Mohammed armed Ajaj

Ajajmohammed77@gmail.com

التدريسي في الجامعة العراقية / كلية العلوم الإسلامية

قسم العلوم المالية والمصرفية الإسلامية

إلى اللجنة القائمة على مؤتمر العلوم الإسلامية في الجامعة العراقية

Teaching at the Iraqi University / College of Islamic Sciences

Department of Islamic Banking and Financial Sciences

To the committee responsible for the conference of the College of Islamic Sciences

خلاصة البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد؛

فإن الحضارة ترقى ويرتفع شأنها بين الحضارات بسمو مبادئها، وارتقاء غاياتِها، ومن ذلك سمو النزعة الإنسانية في مقوماتها عن طريق شمولها لمطالب كل من ينتمي إليها، وبذلك تتنافس الحضارات، وتتفاضل فيما بينها.

وحضارتنا الإسلامية بلغت بذلك ذروة لم تصل إليها حضارة من قبل، رغم عراقة بعض الحضارات السابقة وبروزها في كثير من ضروب الحياة الإنسانية.

ومما تميزت به حضارتنا مجالات أعمال الخير، والإنفاق على أوجه البر، وهو ما عرف في الحضارة الإسلامية بنظام الوقف، وهذا النظام، وإن عرف عند بعض الحضارات غير الإسلامية – السابقة واللاحقة -، فقد جاء في أضيق مجالاته دون الغاية السامية التي أوجد هذا النظام من أجلها في الإسلام، وهي طلب الأجر والثواب من الله عز وجل، إذ كان الدافع الأكثر بروزاً في توجه بعض أصحاب المَبرَات الإنسانية غير الإسلامية إلى هذه الأعمال هو طلب الجاه أو الشهرة، أو خلود الذكر، بينما كان المحرك الأساس في أعمال البر والإنفاق عند المسلمين هو ابتغاء مرضاة الله عز وجل سواء أعلم الناس أم لم يعلموا .

ونظراً لسمو الغاية التي شُرع الوقف من أجلها في الإسلام، فقد شهد بداية قوية في عصر النبي ﷺ، وشهد نمواً وتطوراً كبيراً في عصور الخلفاء الراشدين من بعده ، ولم يمض إلا زمن يسير حتى بات أثر الوقف واضحاً، وتعددت مجالاته فشملت قطاعاً عريضاً من المجتمع الإسلامي يستوي في ذلك الفقراء والأيامى، والأيتام، والمرضى، والمعاقون، وطلبة العلم الحاضرون والمغتربون، وعابرو السبيل.

وكانت الأوقاف تمثل الركيزة الاقتصادية الأساسية في بناء الحضارة الإسلامية، حيث كان لهذا النظام أثره الواضح في إثراء كثيرٍ من جوانب هذه الحضارة وبنائها، فعن طريق الوقف بُنيَت كثيرٌ من المساجد والمدارس ودور التعليم على اختلافها، وتمّ الصرف عليها بما يضمن استمرارها في أداء رسالتها على الوجه الأكمل، وعن طريق الوقف تمّت متابعة الصرف على الحرمين الشريفين عبر كثير من العصور الإسلامية، وأمِنُتَ طرق الحج وسُهِلَت رعاية الحجيج، وعن هذا الطريق

أيضاً تم الصرف على عديد من الجيوش الإسلامية الموجهة للجهاد في سبيل الله تعالى، وفكّ أسرّ مجموعات من الأسرى المسلمين، وعن طريق الأوقاف تمت رعاية المرضى والمحتاجين من الفقراء والمساكين وأنشئت دور الرعاية الصحية والاجتماعية على اختلافها.

وبالجملة، فقد أصبحت موارد الأوقاف تغطي قطاعاً عريضاً من احتياجات المجتمع الإسلامي عبر عصوره المختلفة مما خُصصت له في عصورنا الحاضرة وزارات وإدارات عدة، ومع هذا فقد تراجعت فاعلية الأوقاف في هذا الزمان، فأصبح الوقف يعيش حالة ركود تستدعي التنادي إلى دراسة الأسباب وبحثها رغبة في تنشيط دور الوقف للقيام بالمهام الريادية التي كان يقوم بها في إثراء الحضارة الإسلامية عبر عصورنا المختلفة.

وهذا البحث إسهاماً من كاتبة في أحد محاور المؤتمر محاولة لإبراز بعض جوانب إثراء الوقف لبنية الحضارة الإسلامية بصفة عامة، وبمعالجة سريعة لبعض جوانب هذه الحضارة، وإلا فإن مثل هذا الموضوع يبدو بتفصيلاته وتنوع عناصره شاملاً لموضوعات أوسع من هذا المقام، ويمكن دراسته بتفصيل أعم في مرحلة قادمة بعون الله وتوفيقه.

والله أسأل أن ينفعنا بما علمنا، وأن يجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهه الكريم، وأن ييسر لنا طريق الخير والهدى والرشاد إنه جواد كريم.

Islamic and non-Islamic endowments and their role in civilized construction

Thank Allah , the Lord of the Worlds, and prayers and peace to our Prophet Muhammad and to all his gods and companions, but after:

Civilization promotes and rises among civilizations by the supremacy of its principles and its objectives, including the superiority of humanism in its components by encompassing the demands of all its members, thereby competing with civilizations and differentiate disparsely fiddly among them.

Our Islamic civilization has thus reached a peak that has never been reached before, despite the legacy of some previous civilizations and their emergence in many forms of human life.

In view of the high purpose for which the Waqf was founded in Islam, it witnessed a strong beginning in the era of the Prophet, and witnessed great growth and development in the era of the caliphs after him, and it was only a long time before the impact of the waqf became clear, and its areas were multiplied, including a broad section of the Muslim community. This is for the poor and the days, orphans, the sick, the disabled, the students of science present, the expatriates, and the passers-by.

In total, the resources of endowments have become cover a wide range of the needs of the Islamic society throughout its various eras, which has been allocated to it in our present times ministries and administrations, and yet the effectiveness of endowments has declined in this time, so that the waqf is living in a state of stagnation that calls for the study of the causes and their research. A desire to activate the role of waqf to carry out the pioneering tasks he was carrying out.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد؛

فإن الحضارة ترقى ويرتفع شأنها بين الحضارات بسمو مبادئها، وارتقاء غاياتِها، ومن ذلك سمو النزعة الإنسانية في مقوماتها عن طريق شمولها لمطالب كل من ينتمي إليها، وبذلك تتنافس الحضارات، وتتفاضل فيما بينها.

وحضارتنا الإسلامية بلغت بذلك ذروة لم تصل إليها حضارة من قبل، رغم عراقة بعض الحضارات السابقة وبروزها في كثير من ضروب الحياة الإنسانية.

ومما تميزت به حضارتنا مجالات أعمال الخير، والإنفاق على أوجه البر، وهو ما عرف في الحضارة الإسلامية بنظام الوقف، وهذا النظام وإن عُرِفَ عند بعض الحضارات غير الإسلامية – السابقة واللاحقة -، فقد جاء في أضيق مجالاته دون الغاية السامية التي أوجد هذا النظام من أجلها في الإسلام، وهي طلب الأجر والثواب من الله عز وجل، إذ كان الدافع الأكثر بروزاً في توجه بعض أصحاب المَبرَات الإنسانية غير الإسلامية إلى هذه الأعمال هو طلب الجاه أو الشهرة، أو خلود الذكر، بينما كان المحرك الأساس في أعمال البر والإنفاق عند المسلمين هو ابتغاء مرضاة الله عز وجل سواء أعلم الناس أم لم يعلموا(١).

ونظراً لسمو الغاية التي شُرع الوقف من أجلها في الإسلام، فقد شهد بداية قوية في عصر النبي ﷺ، وشهد نمواً وتطوراً كبيراً في عصور الخلفاء الراشدين من بعده، ولم يمض إلا زمن يسير حتى بات أثر الوقف واضحاً، وتعددت مجالاته فشملت قطاعاً عريضاً من المجتمع الإسلامي يستوي في ذلك الفقراء والأيامى، والأيتام، والمرضى، والمعاقون، وطلبة العلم الحاضرون والمغتربون، وعابرو السبيل.

وكانت الأوقاف تمثل الركيزة الاقتصادية الأساسية في بناء الحضارة الإسلامية، حيث كان لهذا النظام أثره الواضح في إثراء كثيرٍ من جوانب هذه الحضارة وبنائها، فعن طريق الوقف بُنيَت كثيرٌ من المساجد والمدارس ودور التعليم على اختلافها، وتمّ الصرف عليها بما يضمن استمرارها في

(١) من روائع حضارتنا لمصطفى السباعي.– ط٢ دمشق، بيروت ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م) ص ١٢١ ,

أداء رسالتها على الوجه الأكمل، وعن طريق الوقف تمّت متابعة الصرف على الحرمين الشريفين عبر كثير من العصور الإسلامية، وأمِنُتَ طرق الحج وسُهِلَت رعاية الحجيج، وعن هذا الطريق أيضاً تم الصرف على عديد من الجيوش الإسلامية الموجهة للجهاد في سبيل الله تعالى، وفكّ أسرّ مجموعات من الأسرى المسلمين، وعن طريق الأوقاف تمت رعاية المرضى والمحتاجين من الفقراء والمساكين وأنشئت دور الرعاية الصحية والاجتماعية على اختلافها.

وبالجملة، فقد أصبحت موارد الأوقاف تغطي قطاعاً عريضاً من احتياجات المجتمع الإسلامي عبر عصوره المختلفة مما خُصصت له في عصورنا الحاضرة وزارات وإدارات عدة، ومع هذا فقد تراجعت فاعلية الأوقاف في هذا الزمان، فأصبح الوقف يعيش حالة ركود تستدعي التنادي إلى دراسة الأسباب وبحثها رغبة في تنشيط دور الوقف للقيام بالمهام الريادية التي كان يقوم بها في إثراء الحضارة الإسلامية عبر عصورنا المختلفة.

وهذا البحث إسهاماً من كاتبة في أحد محاور المؤتمر محاولة لإبراز بعض جوانب إثراء الوقف لبنية الحضارة الإسلامية بصفة عامة، وبمعالجة سريعة لبعض جوانب هذه الحضارة، وإلا فإن مثل هذا الموضوع يبدو بتفصيلاته وتنوع عناصره شاملاً لموضوعات أوسع من هذا المقام، ويمكن دراسته بتفصيل أعم في مرحلة قادمة بعون الله وتوفيقه.

والله أسأل أن ينفعنا بما علمنا، وأن يجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهه الكريم، وأن ييسر لنا طريق الخير والهدى والرشاد إنه جواد كريم.

المبحث الأول

المطلب الأول: التعريف بألفاظ البحث في اللغة والاصطلاح

الوقف تشريع إسلامي أصيل، يستمد مشروعيته من السنة النبوية القولية والفعلية، وهو أسلوب حضاري متقدم للتمويل الذاتي للمرافق الإسلامية، ومؤسساته الاجتماعية، والدينية، والعلمية.

اتفق اللُّغويون وعلماء الشريعة بأن الوقف مصدر يراد به اسم المفعول، بمعنى الشيء الموقوف، والوقف عندهم هو الحبس والمنع.

والوقف لغةً قال فيه محمد بن منظور في لسان العرب: (وَفِي الْحَدِيثِ: ذَلِكَ حَبِيسٌ فِي سَبِيلِ اللَّه، أَي مَوْقُوفٌ عَلَى الْغُزَاةِ يَرْكَبُونَهُ فِي الْجِهَادِ، والحَبِيسُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، وَكُلُّ مَا حُبِسَ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ حَبِيسٌ، اللَّيْثُ: الحَبِيسُ الْفَرَسُ يُجْعَلُ حَبِيساً فِي سَبِيلِ اللَّه يُغْزى عَلَيْه) [١].

وقال الفيروز آبادي في القاموس المحيط :(الحَبْسُ: المَنْعُ،.. وكلُّ شيءٍ وقَفَهُ صاحِبُهُ من نَخْلٍ أو كَرْمٍ أو غيرِها يُحَبَّسُ أَصْلُهُ، وتُسَبَّلُ غَلَّتُهُ... قال: وتَحبيسُ الشيءِ: أن يُبَقَّى أَصْلُهُ، ويُجْعَلَ ثَمَرُهُ في سَبيلِ الله) [٢].

أما في الاصطلاح فقد اختلف الفقهاء في تعريفه تبعاً لاختلافهم في مسائله الجزئية، واشمل تعريف واوجزه في بيان معنى الوقف (**تحبيس الأصل وتسبيل المنفعة**) [٣] ، وأفضل ما يدل على هذا التعريف ما رواه نافع عن ابن عمر، قال: أصاب عمر بن الخطاب أرضا بخيبر، فأتى النبي ﷺ فاستأمره، فقال: يا رسول الله، إني أصبت مالا بخيبر، لم أصب مالا قط هو أنفس عندي منه، فما تأمرني به؟ فقال: ((**إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها**)) قال: «فعمل بها عمر، على أن لا يباع أصلها، ولا يوهب، ولا يورث، تصدق بها للفقراء، وفي القربى، وفي الرقاب، وفي سبيل الله، وابن السبيل، والضيف، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف،

---

(١) لسان العرب لابن منظور الافريقي ت ٧١١ هـ، دار صادر – بيروت ، ط / ٣ ، ١٤١٤ هـ ٦ / ٤٥.

(٢) القاموس المحيط لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ت ٨١٧ هـ، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان ، ط / ٨ ، ٢٠٠٥ م ، ص ٥٣٧.

(٣) شرح مختصر الخرقي لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله ت (٧٢٢) هـ ، مكتبة العبيكان / الرياض ، ١٩٩٣ / ٤ / ٢٦٨ .

أو يطعم صديقا، غير متمول) [1] .

وأورد الشيخ أبو زُهرة (رحمه الله) تعريفاً اصطلاحياُ جامعاً يُستخلص منه أن الوقف: هو حبس العين بحيث لا يُتصرف فيها بالبيع او الهبة أو التوريث، وصرف الثمرة إلى جهة من جهات البر وفق شرط الواقف[2] .

أما التنمية ففي اللغة مصدرها من (نما يَنمو، انْمُ، نماءً ونُمُوًّا، فهو نامٍ، والمفعول منموّ (للمتعدِّي) ، نمَا الزّرعُ والمالُ: كثر وازداد «نموٌّ طبيعيّ- تسعى البلادُ النَّامية إلى تحسين اقتصادها- ترتفع معدَّلات النُّموّ في البلاد الصِّناعيّة»، نمَا الولدُ: نشأ وترعرع وتربّى «نموّ شاذ: غير منتظم، غير سويّ» [3] .

أما في الاصطلاح فالتنمية الاقتصادية كمفهوم عام يقصد بها عملية التحويل من حالة أو وضع إلى حالة أو وضع آخر أفضل، وهي تعني التطوير بمختلف أشكاله، فالتنمية بحد ذاتها هي عملية تطوير تؤدي إلى رفع مستوى المجتمع، بمختلف جوانبه من مستوى أدنى نسبيا إلى مستوى أعلى نسبيا.

أو التنمية هي تلك العملية متعددة الأبعاد التي تتضمن إجراء تغيرات جذرية في الهياكل الاقتصادية والاجتماعية والسلوكية والثقافية والنظم السياسية والإدارية وبالتالي للتنمية مفهوم ذو دلالة اقتصادية واجتماعية وثقافية وإدارية وسياسية وقانونية.

وبالتالي فالتنمية عملية اجتماعية شاملة ومتكاملة لأن التغيرات السابقة الذكر مترابطة مع بعضها البعض في المجتمع.

ويمكن تعريفها بانها: التغير المقصود الموجه والمخطط باتجاه ضمان البقاء وتحقيق الاستمرارية والرفاهية والنمو للمجتمع.

ومما سبق يمكن أن نقول إن التنمية تغير شامل في البيئة الاجتماعية من خلال أهداف ومؤشرات ترتفع بمستوى الأداء الإداري والفكري وتتحكم في مسارات النمو باتجاه تحقيق الرفاهية في المجتمع.

---

(١) سنن ابن ماجة لابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ) ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية / فيصل عيسى البابي الحلبي ٢ / ٨٠١ .

(٢) محاضرات في الوقف لمحمد أبو زُهرة ، دار الفكر العربي / القاهرة ، ب.ط.ت. ، ص ٤٤ .

(٣) معجم اللغة العربية المعاصرة للدكتور أحمد مختار عبد الحميد عمر / عالم الكتب ، ط / ١ ٢٠٠٨ م ، ٣ / ٢٢٨ .

وبالتالي الركيزة الأساسية ومنطلق التنمية يبنى على الإنسان، وبالتالي فالتنمية تبدأ بالإنسان وتنتهي عنده.

وأخيرا إن مسارات تحقيق الرفاهية في المجتمع تعتمد بشكل مركزي وأساسي على تحقيق التنمية الشاملة المبنية على خطط علمية سليمة وتنفذ من قبل أجهزة إدارية ذات كفاءة عالية، وقادرة على تحقيق الأهداف المنشودة [١١] .

المطلب الثاني: التعريف بالوقف في النظام الإسلامي والغربي

لقد نشأ الوقف الإسلامي منذ صدر الإسلام على المستوى النصي والعملي، ثبتت مشروعية الوقف بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، من الكتاب قال تعالى: ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾[٢]، وقول الرسول) ﷺ (: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»[٣].

وعلى المستوى العملي التطبيقي، فإن الرسول ﷺ (هو أول من أوقف سبع حوائط (بساتين) التي أوصى بها مخيرق اليهودي إن قتل فهي لمحمد يضعها حيث أراد الله تعالى فقتل يوم أحد، وقبض النبي ﷺ تلك الحوائط السبعة فتصدق بها أي أوقفها»[٤].

وكذلك أوقف الصحابة منهم طلحة وعمر وعثمان رضي الله عنهم وغيرهم كثير حتى يقال أنه ما بقى أحد من أصحاب رسول الله ﷺ له مقدرة إلا أوقف[٥]، واستمر إنشاء الوقف على مدى التاريخ الإسلامي.

أما الإجماع فقد حكاه جمع من أهل العلم ذكرهم ابن قدامه (رحمه الله) [٦] .

يتجلى الهدف الأسمى للوقف في التقرب إلى الله تعالى بالطاعات الدائمة وأعمال البر والخير المتجددة ، ويمكن تقسيم اهداف الوقف الإسلامي إلى قسمين :

(١) ١ محاضرات في مدخل الاقتصاد، لمعين السيد أحمد، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، السنة الجامعية ١٩٩٩/ ٢٠٠٠.

(٢) سورة آل عمران، من الآية رقم ٩٢.

(٣) رواه ابن ماجة في سننه ٤ / ١٢٢ .

(٤) الإسعاف في أحكام الأوقاف لبرهان الدين الطرابلسي ـ طبعة دار الرائد العربي ص١٠٢٩.

(٥) أحكام الأوقاف للحصاف ـ دار الكتب العلمية بيروت ـ ١٩٩٩ ص١٧٨.

(٦) المغني لأبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي ، الشهير بابن قدامة المقدسي ، ت / ٦٢٠ هـ، مكتبة القاهرة ، ب . ط ، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م ، ٨ / ١٨٥ .

أولاً) هدف عام ويتمثل في إيجاد مورد دائم ومستمر لتحقيق غرض مباح من اجل مصلحة عامة.

ثانياً) اهداف خاصة وهي كثيرة من اهمها :

أ. تنظيم الحياة عن طريق منهج التكافل الاجتماعي بين افراد الأمة الإسلامية.

ب. ضمان بقاء المال ودوام الانتفاع به، والاستفادة منه مدة طويلة ولأجيال متعاقبة.

ج. استمرار حصول القربة ورضوان الله تعالى للواقف في حياته وبعد مماته.

د. تأمين مستقبل ذرية وقريبا الواقف عن طريق إيجاد مورد ثابت ومستمر لهم

هـ. حماية المال والمحافظة عليه من عبث العابثين كإسراف ولد، او تصرف قريب، حيث يبقى المال ويستمر النفع من ريعه.

و. كما أن للوقف هدف أسمى وأعلى من بقية الأهداف، وهو امتثال أمر الله ﷻ وامر رسول الله ﷺ بالإنفاق والتصدق والبذل والعطاء في وجوه البر والتعاون على الخير.

هذا بالنسبة للوقف عند المسلمين أما الوقف عند الغرب فهو عبارة عن مؤسسات خيرية تم انشائها من افراد بدافع انساني لا ديني ، وهذا الفرق هو سيجعلنا نشاهد أن الوازع الديني أدى الى وجود الأموال الوقفية الكثير في الحضارة الإسلامية مع ندرة الوقف عند الغرب وقلته ، اذ انه في التشريع الإسلامي أمر قديم بقدم البعثة النبوية ، وفي الغرب أمر حادث ظهر جلياً بعد الحرب العالمية الأولى خصوصاً .

المطلب الثالث: التعريف بالبناء الحضاري واهميته في بناء الأُمم

الحضارة في اللغة هي كلمة مشتقة من الفعل والحضر والحضرة والحاضرة: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي لا يكون لهم بها قرار، والبادية يمكن أن يكون اشتقاق اسمها من بدا يبدو أي برز وظهر ولكنه اسم لزم ذلك الموضع خاصة دون ما سواه؛ وأهل الحضر وأهل البدو [١]، ويقال الحضارة هي تشييد القرى والأرياف والمنازل المسكونة، فهي خلاف البدو والبداوة والبادية، وتستخدم اللفظة في الدلالة على المجتمع المعقد الذي يعيش أكثر أفراده في المدن ويمارسون الزراعة على خلاف المجتمعات البدوية ذات البنية القبلية التي تتنقل بطبيعتها وتعتاش بأساليب لا تربطها ببقعة

(١) لسان العرب ٤ / ١٩٧ .

جغرافية محددة، كالصيد مثلاً، ويعتبر المجتمع الصناعي الحديث شكلاً من اشكال الحضارة.

تعتبر لفظة حضارة مثيرة للجدل وقابلة للتأويل، واستخدامها يستحضر قيم (سلبية أو ايجابية) كالتفوق والإنسانية والرفعة، وفي الواقع رأى ويرى العديد من أفراد الحضارات المختلفة أنفسهم على أنهم متفوقون ومتميزون عن أفراد الحضارات الأخرى، ويعتبرون أفراد الحضارات الأخرى همجيين ودونيين.

و يذهب البعض إلى اعتبار الحضارة أسلوب معيشي يعتاد عليه الفرد من تفاصيل صغيرة إلى تفاصيل أكبر يعيشها في مجتمعه ولا يقصد من هذا استخدامه إلى احدث وسائل المعيشة بل تعامله هو كإنسان مع الأشياء المادية والمعنوية التي تدور حوله وشعوره الإنساني تجاهها. ومن الممكن تعريف الحضارة على أنها الفنون والتقاليد والميراث الثقافي والتاريخي ومقدار التقدم العلمي والتقني الذي تمتع به شعب معين في حقبة من التاريخ. إن الحضارة بمفهوم شامل تعني كل ما يميز أمة عن أمة من حيث العادات والتقاليد وأسلوب المعيشة والملابس والتمسك بالقيم الدينية والأخلاقية ومقدرة الإنسان في كل حضارة على الإبداع في الفنون والآداب والعلوم.

الحضارة الإسلاميّة تُعرف الحضارة الإسلاميّة على أنها حضارة ناتجة عن تفاعل الشّعوب وثقافاتهم التي دخلت تحت راية الإسلام، سواء كانت تلك الشّعوب مؤمنةً بالإسلام أو منتسبةً له، أو مصدّقة ومعتقدة به، وللحضارة الإسلاميّة نوعان؛ النّوع الأول وهو ما يُعرف بحضارة الإبداع والخلق، وهي حضارةٌ إسلاميّةٌ أصيلةٌ، يعد الدّين الإسلامي مصدرها الوحيد، أما النّوع الثّاني وهو ما يطلق عليه اسم حضارة الإحياء والبعث، والّتي قام المسلمون فيها بتحسين وتطوير الفكر البشري عن طريق تجاربهم الّتي قاموا بها[١] .

والحضارة الإسلاميّة هي الحضارة الوحيدة الّتي أقامها دينٌ واحدٌ، إلّا أنّها كانت موجهة لجميع الأديان، كما أن الحضارة الإسلاميّة جزءٌ من سلسلة حضاراتٍ مختلفة، فقد سبقتها حضاراتٌ كثيرةٌ وتبعتها مجموعة من الحضارات، وقد قدمت الحضارة الإسلاميّة خبرات كثيرةً للبشريّة في المجالات العلميّة والفنيّة، إضافةً إلى تطوّراتٍ في مجال العمارة [٢] .

بداية الحضارة الإسلاميّة كانت منذ عهد النّبوّة (١- ١١هـ)، واستمرّت الحضارة الإسلاميّة في تطوّرها وازدهارها في عهد الخلفاء الرّاشدين (١١- ٤٠هـ)، وكان للدوّلة الأمويّة (٤١ - ١٣٢هـ) آثارٌ واضحةٌ في تطور وازدهار الحضارة الإسلاميّة وتوسّعها في إفريقيا والأندلس (البرتغال، وجنوب

(١) الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية عبد العزيز الخياط ، دار المعرفة / بيروت ص ٢٣ .

(٢) العالم الإسلامي في عصر العولمة لعبد العزيز التويجري ، عمان -الاردن: دار الشروق، صفحة ١٣٧، (٢٧-١٠-٢٠١٣)،

فرنسا، وإسبانيا)، وحتّى العصر العباسي (١٣٢- ٦٥٦هـ)، وعصر المماليك (٦٤٨- ٩٢٢هـ)، وكذلك العهد العثماني، فقد استمرّت الحضارة الإسلاميّة بالتّوسّع واستمرّ تأثيرها في شتّى بقاع الأرض[١] . وكان للحضارة الإسلاميّة مجموعةٌ كبيرةٌ من الآثار الحضارية في مختلف المجالات ومنها [٢] .

أ. **المجالات الدّينيّة:** إنّ الإصلاحات الدّينيّة الّتي حدثت في أوروبا قد تأثّرت بشكلٍ كبيرٍ بمبادئ الحضارة الإسلاميّة، وذلك بسبب الفتوحات الإسلاميّة في جميع أنحاء العالم، فزال الخصام المذهبي، وأُعلن عن تفرّد الإنسان بعبادته وتواصله مع خالقه.

ب. مجال الجغرافيا والفلك: لقد عرف المسلمون شكل الأرض- كرويّتها- وكذلك عرفوا كيف تدور الأرض، إضافةً إلى معرفتهم لحركة الأجرام السّماويّة ، ويُعد **الأدريسي** أشهر عالم عربي وعلى مستوى العالم _ في وقته _ في مجال علم الجغرافية وهو من مؤسسي هذا العلم ، كما أنه كتب ودرس الفلسفة وعلم الفلك في قرطبة ، واستُخدِمت مصوراته وخرائطه في سائر كشوف عصر النهضة الأوربية ، حيث لجأ الى تحديد اتجاهات الأنهار والبحيرات والمرتفعات ، وضمنها أيضاً معلومات عن المدن الرئيسة بالإضافة الى حدود الدول ، وهو أول من رسم خريطة للعالم .

ج. **مجال الطّب:** تميّز العلماء المسلمون في مجال الطّب، فكانوا يكتشفون ويؤلفون الكتب، ونرى ذلك في كتاب ابن سينا (القانون)، وكذلك كتاب الحاوي لأبو بكر الرّازي، وقد اهتمّ الغرب بهذه الكتب، وقاموا بترجمتها إلى اللاتينيّة، وأصبحت تُدرّس في جامعاتهم.

د. مجال الأدب: هنالك العديد من الإنجازات الحضاريّة للمسلمين في مجال الأدب، كتأثّر الحضارات الأخرى بالأدب العربي الإسلامي، فنرى مدى تأثّرهم بروايات الأدباء المسلمين، ويرى بعض النّقاد أنّ رسالة الغفران لأبي العلاء المعرّي قد تأثّر بها الكاتب دانتي عند كتابته للقصّة الإلهيّة، وقد أخذ الأوروبيّون من المسلمين التّخيلات في الأدب، وكذلك المجاز وما يُعرف بأدب الحماسة والفروسيّة.

هـ. مجال الفلسفة: نرى في مجال الفلسفة أنّ الكثير من الباحثين الغربيين قد تأثّروا بالفلاسفة المسلمين، حتّى إنّ لوثر في حركاته الإصلاحيّة قد تأثّر بما قرأه من كتبٍ للعلماء المسلمين من أمور العقيدة والوحي، وكذلك الفلاسفة العرب، وقد اعتمدت الكثير من الجامعات الأوروبيّة على

(١) روائع الحضارة الإسلامية لمصطفى السباعي ص ٦٧ .

(٢) العالم الإسلامي التاريخ في الجغرافيا لياسر تاج الدين ، تعريف الحضارة وأسسها في الإسلام لطارق أشقر، دعوة لاستلهام إنجازات الحضارة

ما كتبه الفلاسفة المسلمون.

و. مجال التّشريع: إنّ لمجموعة الأحكام الفقهيّة للحضارة الإسلاميّة أكبر الأثر في القوانين المشرّعة في ذلك الوقت في أوروبا، ففي عهد نابليون تُرجمت كتب الإمام المالكي الفقهيّة إلى اللغة الفرنسيّة، وقد كان (كتاب خليل) أساس القانون المدني في فرنسا، كما أنّ كتاب العالم خليل بن إسحاق بن يعقوب (المختصر في الفقه) من ضمن الكتب الفقهيّة المترجمة إلى الفرنسيّة.

ز. مجال الرّياضيات: ظهرت العديد من الوثائق التّي تؤكّد أنّ بعض العلوم الحديثة هي ذات أصول عربيّة، ومن هذه العلوم علم الجبر، هذا العلم الّذي يعود الفضل بظهوره إلى العالم المسلم محمد بن يوسف الخوارزمي.

ح. مجال العمارة: لقد اهتمّت الحضارة الإسلامية بالعمارة وأبدعت نماذج معمارية خالدة عبر الزمن، حيث حرص المعماري المسلم على تكامل وظيفة المبنى وتناسق عناصره وجمالها، وتشهد الآثار العمرانية في الحضارة الإسلامية على تعمّق مهندسيها في الهندسة، والرياضيات، والميكانيكا، ومن أهم إسهامات المعماريين المسلمين: تقنية القباب، حيث استطاعوا بناء قبابٍ ضخمة ذات حسابات معقّدة، كما تطوّر استخدام الأقواس علي أيدي المسلمين، حيث ابتدعوا قوس حذوة الفرس، كما ابتدعوا عنصر المقرنصات، والمشربيات التي امتازت بوظيفة بيئية تمثّلت بتخفيف حدّة الشمس، ووظيفة اجتماعية تمثلت بحفظ الخصوصية .

ط. تقنية الصوتيات المعمارية: أفاد المسلمون من تطبيقات علم الصوتيات (Acoustics) -الذي يَدِينُ بنشأته و إرساء أصوله المنهجية السليمة للمسلمين- في تطوير تقنية الهندسة الصوتية، واستخدامها فيما يُعْرَفُ الآن باسم (تقنية الصوتيات المعمارية)، فقد عرفوا أن الصوت ينعكس عن السطوح المقعَّرة، ويتجمَّع في بؤرة محدَّدة، شأنه في ذلك شأن الضوء الذي ينعكس عن سطح مرآة مقعرة، وقد استخدم التقنيون المسلمون خاصية تركيز الصوت (Focusing of sound) في أغراض البناء والعمارة؛ وخاصة في المساجد الجامعة الكبيرة؛ لنقل وتقوية صوت الخطيب والإمام في أيام الجمعة والأعياد؛ مثال ذلك: مسجد أصفهان القديم، ومسجد العادلية في حلب، وبعض مساجد بغداد القديمة؛ حيث كان يُصَمَّمُ سقف المسجد وجدرانه على شكل سطوح مُقَعَّرَةٍ، موزَّعة في زوايا المسجد وأركانه بطريقة دقيقة؛ تضمن توزيع الصوت بانتظام على جميع الأرجاء.

وإن هذه المآثر الإسلامية الباقية حتى اليوم لخير شاهد على ريادة علماء الحضارة الإسلامية

في تقنية الصوتيات الهندسية المعمارية، وذلك قبل أن يبدأ العالم المعروف (والاس ك سابين حوالي عام (١٩٠٠م) في دراسة أسباب سوء الصفات الصوتية لقاعة محاضرات في جامعة هارفارد الأمريكية، وتتبُّع سلوك الخواصِّ الصوتية للقاعات وحجرات غُرَفِ الموسيقى [١] .

(١) فن العمارة في الحضارة الإسلامية مقال للأستاذ الدكتور راغب السرجاني على شبكة الانترنت تم الاطلاع عليه بتاريخ ١١ / ١ / ٢٠١٩ ١https://islamicarchitecture.blogspot.com/ .

المبحث الثاني

المطلب الأول: دور الأموال الوقفية في المجتمع الغربي

سأدرس في هذا المبحث مؤسسة من المؤسسات الوقفية _ان صح التعبير _ في المجتمع الغربي وهي مؤسسة (قارفيلد وستون) كمثال على المؤسسات الغربية [١] .

تاريخ الشركة: الفترة الأولى:

كانت البداية من مصنع (وستون) للخبز محلي الصنع الذي أنشأه (جورج وستون) عام ١٨٨٢ م في تورنتو في كندا، لقد كان (جورج وستون) والد (ويارد قارفيلد وستون) بطريرك ورئيس مؤسسة (قارفيلد وستون) حِرفيًّا مبتدئًا في صناعة الخبز، ثم اجتهد وبنى نفسه بنفسه إلى أن أصبح رجل أعمال.

قام (ويارد قارفيلد وستون) الذي وُلد عام ١٨٩٨ م بالعمل مع أبيه في سن مبكرة، لكنه سرعان ما التحق بصفوف الخدمة في الحرب العالمية الأولى، التي شاهد في أثنائها أشهر المصانع البريطانية في صناعة البسكويت، فتيقن عندئذ أنه يستطيع صناعة نوع المنتج نفسه وتسويقه في كندا.

ثم عاد إلى الانضمام إلى عمل أبيه عام ١٩١٩ م، وأقنعه باستيراد معدات صناعة البسكويت إضافة إلى الاستعانة بالخبرة اللازمة من إنجلترا. وبوفاة أبيه عام ١٩٢٤ م، أصبح (قارفيلد وستون) رئيسًا لشركة(جورج وستون المحدودة / كندا (

التوسع الدولي:

في عام ١٩٣١ م، شهد سعر القمح انهيارًا في فترة الكساد العالمي الكبير؛ مما دفع إلى إعداد خطة للتوسع في الأسواق العالمية لدعم تصدير القمح الكندي، فقام بالاستحواذ على مخابز بريطانية وتحديثها عام ١٩٣٣ م بدعم من مستثمر في (نيويورك)؛ حيث بدأ بالاستحواذ على إدارة بسكويت (متشل أند مويل)، وهي مخابز أسكتلندية منشأة منذ قرن، وكانت هذه المخابز تستورد

(١) مؤسسة قارفيلد وستون ، دراسة تحليلية لأهم ثلاث أوقاف في المملكة المتحدة ، شركة أوقاف سليمان الراجحي ٢٠١٦م ، ص ١٠ – ١٤ .

القمح الكندي لإنتاج خبزٍ بجودة أعلى لعامة الشعب البريطاني.

استطاع قارفيلد وستون) أن يُخرج منافسيه من العلامات التجارية العالمية المشهورة من المشهد، وذلك عن طريق

تحديث نظام المنشآت لكي تُنتج بالجملة وبتكلفة مخفضة في المملكة المتحدة. واستحوذ (قارفيلد) أيضاً على سلسلة من مصانع البسكويت والخبز في أنحاء المملكة المتحدة، ثم قرر الانتقال مع أسرته إلى إنجلترا عام ١٩٣٥ م لإدارة الاستثمار الخارجي الذي ينمو بسرعة تحت مظلة «تحالف المخابز ». وبحلول عام ١٩٣٧ م، أصبح لدى وستون (١٥) مصنعًا فيه أكثر من ١٥،٠٠٠ (موظف. وفي عام ١٩٣٩ م، أصبح (قارفيلد) يسيطر على) (٣٠) مخبزًا في أنحاء الجزر البريطانية.

النمو المستمر:

في أثناء ذلك، أعاد (وستون) تنظيم أعماله في الولايات المتحدة، التي كانت مستمرة في النمو، من خلال الاستحواذ على ثلاثة مصانع كبرى للمخبوزات والبسكويت. ثم عاد (قارفيلد) إلى كندا عام ١٩٤٥ م ليستقر في منطقة الساحل الغربي لوقت ما. وعلى الرغم من أنه كان يفكر حينها في شبه التقاعد إلا أنه

لم يلبث أن انخرط في سلسلة من أعمال الاستحواذ خال الحرب العالمية الثانية، ما بين سلسلة محلات بقالة إلى محلات شوكولاتة وصناعة الحلويات، وواصلت أعماله النمو بشراء شركات ومخابز البسكويت في أنحاء كندا والولايات المتحدة.

وفي فترة ما بعد الحرب، زاد (قارفيلد) حجم أعماله في الخارج؛ حيث استحوذ على علامات تجارية كبرى. وفي عام ١٩٤٩ م، قامت شركته البريطانية القابضة، وفيها (٤٧) شركة تابعة لها داخل المملكة المتحدة، بتأسيس مخابزها الأولى في أستراليا وجنوب أفريقيا.

وأعقب ذلك الأمر بتنفيذ مشروعات في نيوزلندة، والهند، وروديسيا. وفي عام ١٩٥١ م، قام وستون بشراء شركة فورتنام أند مايسون لندن وهي سلسلة بقالة راقية المستوى ومتاجر تجزئة متخصصة، وفي عام ١٩٥٥ م، اشترى تحالف المخابز الخاص به شركة (ايردتد بريد) ثاني أكبر سلسلة مطاعم في إنجلترا، واستمر التوسع الكبير في المملكة المتحدة منذ أواسط الخمسينيات لتشمل علامات تجارية لبقالات كبيرة وتجارات التجزئة .

إطلاق مؤسسة (قارفيلد وستون) الخيرية:

في عام ١٩٥٨ م، أسس (فارفيلد) وزوجته (ريتا) صندوقًا خيريًّا مبنيًّا على الفلسفة الخيرية في نفع الشعب الكندي؛ حيث إن سبب نجاح أعمالهم في الفترة الأولى كان بفضل الجهد الشاق الذي بذله الموظفون الكنديون.

الفترة الأخيرة:

في عام ١٩٦١ م، تحول كيان تحالف المخابز إلى شركة (وستون أسوشيتد بريتش فودز) وحينئذ قام)قارفيلد وستون) بتأمين الدخول إلى أسواق التجزئة بألمانيا الغربية وفرنسا.

وفي عام ١٩٦٦ م، أي عند بلوغه ال(٦٨) من العمر، وصل عدد الشركات القابضة التابعة ل)جورج وستون(المتحدة (١٥٠) شركة نشطة بمبيعات سنوية تُقدر ب(٢٫٨) مليار دولار أمريكي، وأرباح وأصول تشغيلية تُقدر ب(٤٣) مليون دولار أمريكي، وقد تصل إلى (٨٠٠) مليون دولار أمريكي.

عقب بعض الضغوط المالية وتراجع أداء تجارة التجزئة في كندا في أوائل السبعينيات، عيَّن (قارفيلد وستون) ابنه الأصغر (قالن وستون) لإعادة هيكلة الأعمال التي عانت بسبب ذلك وتعديل مسارها.

وفي عام ١٩٧٤ م، عُيِّن (قالن وستون) رئيسًا لمجلس الإدارة ومديرًا عامًّا لشركة (جورج وستون المتحدة)، مع احتفاظ (قارفيلد) بمنصب نائب الرئيس التنفيذي ورئيس الشركة.

وفي عام ١٩٧٦ م، بِيعت معظم الأقسام غير المربحة، وصُفيت كل أعمال التجزئة والجملة تقريبًا في الولايات المتحدة تدريجيًّا، وكان ذلك العام نفسه الذي سجل أول خسارة في تاريخ شركة (جورج وستون المتحدة) بنهاية السنة المالية، غير أن الشركة عادت لتحقيق الأرباح في السنة المالية التالية، عام ١٩٧٧ م.

وفي عام ١٩٧٨ م، منحت كندا (قارفيلد وستون) **وسام الاستحقاق**، وتوفي في العام نفسه إثر تعرضه لأزمة قلبية عن عمر يناهز ال (٨٠) عامًا.

وعقب وفاته، انتقلت مقاليد إدارة (وستون أسوشيتد بريتش فودز) إلى ابنه (قاري)، وانتقلت إدارة أعمال شمال أمريكا إلى ابنه (قالن).

بنمو الأعمال دوليًّا، مع جعل كندا والمملكة المتحدة أبرز مراكز ممارسة العمل، تم تأسيس مؤسستين، هما: مؤسسة (قارفيلد وستون في كندا)، و(مؤسسة قارفيلد وستون في

المملكة المتحدة).

قام (ويارد قارفيلد وستون) (وزوجته (ريتا وستون) بتأسيس هاتين المؤسستين الخيريتين عام ١٩٥٨ م عن طريق وقف حصة الزوجين في شركة العائلة بصك الوقف المؤرخ في ١٠ أكتوبر ١٩٥٨ م، **وكانت الفلسفة الأساسية لهذا الوقف هي نفع الشعب الكندي** انطلاقًا من اعتقادهما أن عمل الموظفين الجاد في الفترة الأولى كان سببًا في النجاح الكبير الذي حققته الشركة.

لقد تم وهب مؤسسة (وستون قارفيلد)في المملكة المتحدة أسهم العائلة في شركة (أسوشيتد بريتش فودز بي ال سي)، تحالف المخابز سابقًا، في حين تم وهب مؤسسة (قارفيلد وستون في كندا) أسهم العائلة في شركة (جورج وستون المحدودة.

وأسهمت التجارب التي تعرض لها (قارفيلد وستون) في أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية في إدراكه احتياجات وقضايا خيرية متنوعة. وكان ل(قارفيلد) دور سياسي في المملكة المتحدة؛ حيث أسهم في رفع مستوى الوعي الاجتماعي والمسؤولية الاجتماعية.

وُجهت المنح بصورة رئيسة نحو الجهود المجتمعية المبتكرة، والبحوث الطبية، والمستشفيات، والجامعات،ومشروعات الأطفال والشباب، وقُدمت عديد من المنح دون الإفصاح عن مصدرها.

وفي فترة السبعينيات والثمانينيات، أصبح (لأبناء قارفيلد وريتا) دور أكبر في أعمال المؤسسة، فلقد أعطوا الفرصة -من خال أعمال المؤسسة- في المشاركة في إعداد مجتمع أفضل وتطوير إمكانياتهم وحكمهم الشخصي على الأمور؛ حيث تولت (ميريام بورنيت)، الابنة الكبرى ل(قارفيلد)، منصب رئيس مجلس إدارة الصندوق الخيري في كندا، وتولت إدارة مؤسسة (قارفيلد وستون) مع إخوتها، وفي المملكة المتحدة، خلف قارفيلد (قاري) (هوارد وستون) أباه (ويارد قارفيلد وستون) في رئاسة مجلس إدارة شركة (وستون أسوشيتد بريتش فودز) والمؤسسة الخيرية في المملكة المتحدة.

من هذا العرض السريع والموجز لهذه المؤسسة يتبين أن هذه المؤسسة الوقفية وغيرها مؤسسات مستحدثة وليست قديمة ، فلا يتعدى عمره هذه المؤسسات الخيرية ال (٢٠٠) عام ، ونلاحظ من طبيعة عملها أن غالب اعمالها الخيرية ، هو تقديم المساعدات والمعونات للفقراء ، وليس لها دور حضاري ضخم في المجتمع مثل المؤسسات الوقفية الإسلامية .

المطلب الثاني: البُعد التنموي للوقف الإسلامي في العصور الأولى

أن المتتبع لأثر الوقف في المجتمع الإسلامي عبر تاريخ الأمة المجيد يمكن تلخيصه بما يلي :

١) التحول الحضاري من مجتمع بسيط يعتمد على الراعي والزراعة ورحلات التجارة إلى مجتمع متحضر أسس الدول المتقدمة والمدن الواسعة والعلاقات الاقتصادية المتعبة بعد دخول أُمم وحضارات ضمن منظومة الأمة الإسلامية ، حيث ان حاجات الإنسان من مأوى ومأكل ومشرب وطلب عام توجه إلى مؤسسات لها أعرافها وأنظمتها وإدارتها .

٢) تحويل عمل الخير من مبادرات فردية إلى مؤسسات مستديمة كالأوقاف .

٣) ضمان الرعاية الاجتماعية المادية من متطلبات الحياة المختلفة من مأوى وملبس وعلاج ومياه وملاجئ للعجزة والمعوقين واللقطاء ، ويتحقق ذلك عن طريق الأوقاف وغيرها.

٤) توفير ضمانات الحرية الفكرية في المدارس والمعاهد والجامعات في المشرق والمغرب الإسلامي بتوفير الموارد المالية الدائمة بعيدا عن سلطة الحكام ، فكانت الأوقاف أساسا في فتح المدارس والمعاهد والجامعات.

٥) استقلالية المساجد والجوامع وضمان استمراريتها ودوام صيانتها وخدماتها رقم التقلبات الاقتصادية والسياسية التي يتعرض لها المجتمع وأن كثيراً من المساجد في معظم الدول الإسلامية تقوم على تبرعات المحسنين و تدار من قبل أفراد لا علاقة لهم بالدولة ، وتوظف لها الأوقاف المختلفة.

٦) التزام الأوقاف بالأساليب الإدارية والتنظيمية المتطورة ، ومسك الدفاتر والسجلات ، وضبط القيود و مراقبة السلطات لأعمال الأوقاف عن طريق القضاة ، وهذا أدى الى الحفاظ على الأوقاف وضمان استمراريتها .

وقد استفادت الدول الغربية من تجارب الأوقاف الإسلامية في أصبحت امريكا مثلا أن تلعب دورا رائدا في هذا المجال ولا غرابة في ذلك إذا بلغت ممتلكات الأوقاف عام (١٩٨٩ م) اكثر من (١٣٧) مليار دولار تديرها اكثر من٣٢٠٠ مؤسسة خيرية ، في الوقت الذي نرى في الدول الإسلامية اضمحلال الاملاك الوقفية ، والاعتداء عليها ، وإذابتها ضمن الملكيات الخاصة أو العامة بشكل او آخر ، وكانت الأوقاف اعظم ما هو عليه الآن في امريكا وغيرها حيث شملت مجالات متعددة.

أما **مجالات الوقف** فقد كان الوقف قبل الإسلام محصوراً في أماكن العبادة وفي حدود ضيقة

ومما عرفه العرب قبل الإسلام الكعبة المشرفة التي بناها سيدنا إبراهيم عليه السلام لتكون مثابة للناس وأمنا ، ومكاناً للعبادة.

وبعد ظهور الإسلام توسعت مجالات وأغراض الوقف حيث شملت جميع النواحي المادية والاجتماعية والثقافية ، والتي شملت كل ألوان البر بالإنسان حياُ وميتا ، وكذلك الحيوان ، حيث لاقى الحيوان رعاية من قبل المسلمين ، وشمل الوقف كثير من المجالات التي كان لها أثر عظيم في تنمية المجتمع مما أدى الى الرقي الحضارة الإسلامية وسيادتها في صورها الزاهرة ، حيث كانت الأوقاف تمد كثيرا من المؤسسات الاجتماعية والعلمية بالموارد المالية التي تعين على تحقيق رسالتها وكانت هذه المؤسسات على نوعين نوع تنشئه الدولة وتوقف عليه الأوقاف الواسعة، ونوع ينشئه الأفراد ، وقد غطت هذه الأوقاف مجالات عديدة نذكر منها :

أولاً : المساجد فكان الناس يتسابقون على بنائها ابتغاء مرضاة الله فهذا **الوليد بن عبد الملك** يبني المسجد الأموي الذي انتقل على بنائه أموال طائلة وسبق هو والده ببناء مسجد قبة الصخرة، والمساجد كانت النواة الأولى للمدارس والمكتبات والجامعات.

ثانياً : المدارس وكانت المدارس متعددة الغايات منها مدارس لتحفيظ القرآن الكريم وتفسيره، ومنها مدارس للحديث والفقه ، ومنها مدارس للطب ، ومنها مدارس للأيتام ، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعيش في جهل مطبق وأمية متفشية ، وكانت توقف للمدارس الأوقاف يصرف من ريعها رواتب المدرسين وطلبة العلم ، ومن تلك المدارس **دار الحديث بدمشق والمدرسة النظامية في بغداد** وغيرها ، إلى جانب هذه المدارس كانت المكتبات العامة التي كان فيها كل ما يحتاج إليه الناس من الحبر والأقلام والورق والمحابر ، وقد أوقفت المسلمون العديد من الأوقاف على المكتبات وجمعوا لها الكتب من اطراف الدنيا .

يقول عبد العزيز التويجري (بقيت جامعات العالم الإسلامي الشهيرة ومؤسسات التعليم ومراكز العلم والمعرفة في جميع أنواعها في الوطن العربي الإسلامي الكبير قائمة على ريع الأوقاف ، ولم تضع هذه الروح في بلادنا الا في العهود الأخيرة التي تزامنت مع نشوء الدول الحديثة ، بحيث صارت مقاليد التربية والتعليم إلى الحكومات بعد أن تراجع دور الوقف في حياة المسلمين) .

ثالثاً : المستشفيات والمعاهد الطبية اعتنى الإسلام بالصحة والمحافظة على الابدان ويشهد علي ذلك احاديث الرسول) ﷺ (ومن ذلك قوله) ﷺ (لعبد الله بن عمرو بن العاص) : (إن لجسدك عليك حق) [١] وكان أول مستشفى في الإسلام في عهد الرسول ﷺ الذي ضربه خيمة للجرحى في غزوة الخندق ، وكان أول مستشفى ثابت في عهد الوليد بن عبد الملك ثم توالى إنشاء المستشفيات ، وكانت متنوعة منها للجيش ومنها للعامة ومنها المتخصص، وكانت هذه المستشفيات معاهد طبية، ومن هذه المستشفيات المستشفى العضدي في بغداد والمستشفى النوري بدمشق والمستشفى المنصوري في القاهرة ومستشفى مراكش.

رابعا : ولم تقتصر مجالات الأوقاف على المساجد والمدارس والمستشفيات فقد شملت :

- بناء الخانات والفنادق للمسافرين الفقراء المنقطعين وغيرهم .
- بيوت يسكنها من لا يجد ما يشتري به بيتا او يستأجر دارا.
- السقايات في الطرق العامة للناس جميعاً.
- المطاعم التي يوزع فيها الطعام بشتى أصنافه.
- بيوت الحجاج في مكة ينزلونها حين يقدمون إلى البيت الحرام.
- حفر الآبار لسقي الماشية والمسافرين.
- أمكنة المرابطة على الثغور يجد فيها المجاهدون كل ما يحتاجونه من سلاح وذخيرة وطعام ، ويتبع ذلك وقف الخيل والسلاح.
- أوقاف يعطى ريعها لمن يريد الجهاد وللجيش المحارب حين تعجز الدولة عن الانفاق على أفراده.
- إصلاح الطرقات والقناطر والجسور.
- أوقاف المقابر وأكفان الموتى وتجهيزهم .
- مؤسسات للقطاء واليتامى والمقعدين والعجزة والعميان.
- تحسين أحوال المساجين.
- تزويج الشباب والفتيات العزاب ومساعدتهم على نفقات الزواج.
- إمداد الأمهات بالحليب والسكر لتغذية أطفالهن.

---

(١) صحيح البخاري ٣ /٣٩ ، رقم الحديث ١٩٧٥ .

- ومن أطراف الأوقاف وقف الزبادي للأولاد الذين يكسرون الزبادي وهم في طريقهم الى البيت، وكذلك للخدم الذين يتلفون أشياء لأسيادهم.

- علاج الحيوانات المريضة ورعايتها حال هرمها.

- أليست هذه المجالات هي المجالات التي تسعى كل دولة لتأمينها للمواطنين من خلال خططها الاقتصادية التنموية ، وهذا ما يظهر أثر الأوقاف في التنمية الحضارية والاقتصادية .

المطلب الثالث: نحو تطوير استثمار الأموال الوقفية في المشاريع التنموية المعاصرة

كان الوقف بأشكاله المختلفة - كما رأينا - من أبرز الطرق التي قادت النهضة الفكرية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية في المجتمعات الإسلامية على مدار العصور السابقة، ويمكن للوقف أن يقوم بالدور نفسه - إذا استعاد مكانته السابقة - في حل المشكلات التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية في الوقت الحالي، مثل مشكلة الأمية والبطالة والتخلف العلمي والتقني، ومشكلات التنمية الاقتصادية وهو ما سنتناوله بشيء من التفصيل فيما يأتي:

أولاً: الوقف مشكلة الأمية: على الرغم من أن الإسلام يدعو إلى العلم والتعليم، الا انه للأسف يلاحظ ارتفاع نسبة الأمية في العالم الإسلامي والتي بلغ متوسط لها حوالي ٥٠٪ في عام ١٩٩٥[١]، نتيجة الحروب والاحداث في المنطقة العربية، وكذلك عدم اهتمام الدول الإسلامية بالتعليم العملي والتركيز على التعليم النظري.

والعلم في الإسلام ليست مجرد القراءة أو الكتابة أو معرفة الأحكام الشرعية بل يشمل كافة العلوم التطبيقية والإنسانية، وكذا معرفة الأساليب الحديثة في الصناعة والزراعة، والعمل على التقدم في الأبحاث في مختلف المجالات في التعليم هو خير طريق لإعادة بناء الأمة الإسلامية ورفعتها، ولا شك ان وقف الاموال لإنشاء المؤسسات العلمية في المراحل المختلفة يساعد على محو الكثير من الأمية وغرس العلم والثقافة لدى جموع الناس.

ثانياً: مشروعات وقفية معاصرة في مجال العلم والثقافة: يمكن للوقف الإسهام في مشروعات تخدم الناحية العلمية وثقافيا في المجتمعات الإسلامية نذكر منها الآتي:

---

(١) تقرير البنك الدولي عن التنمية في العالم ١٩٩٥ م، ص ٢٨٠.

١. إن شاء قنوات تلفزيونية عن طريق أسهم وقفية تطرح على المسلمين القادرين ويمكن أن يكون بعض الأسهم وقفا وبعضها استثمار.

٢.أنشاء صحف ومجلات إسلامية ورقية والكترونية باللغات المستخدم في العواصم العالمية، وفي البلاد الإسلامية المحرومة من هذا الأمر.

٣. أنشاء الجامعات الإسلامية المعاصرة، ورعاية مئات المعاهد والكليات والمدارس الموجودة في البلاد وخارجها.

٤. إنشاء دور نشر إسلامية في البلاد المختلفة، ترصد جزء من رأس مالها أو أرباحها، لتيسير وصول الكتب الإسلامية وفي العلوم الأخرى لطلاب العلم والباحثين في كل مكان بأسعار مناسبة.

٥. إنشاء مواقع على شبكة المعلومات العالمية الإنترنت ، وتخصيصها لنشر تعاليم الدين الإسلامي وتعريف العالم بالإسلام وأحكامه.

ثالثا: مشروعات وقفية في مجال البحث العلمي: مما لا شك فيه أن الدول الإسلامية متخلفة كثيرا عن الدول الغربية في مجال البحث العلمي واستخدام التقنية الحديثة في الزراعة والصناعة وغيرها، ويمكن للوقف أن يسهم في نهوض الدول الإسلامية في هذا المجال عن طريق مشروعات مختلفة منها:

أ. إنشاء مراكز للحاسب الآلي (الكمبيوتر) للتعليم ولرصد البيانات والمعلومات المختلفة وتحليلها وتقديم هذه المعلومات الى الجهات التي تطلبها بدون مقابل أو بمقابل رمزي.

ب. إنشاء معامل للبحوث الزراعية والصناعية والطبية للقيام بعمل الدراسات والبحوث المعملية التي تحتاج إليها بعض الجهات.

هـ. إنشاء أوقاف خاصة برعاية البحث العلمي ومساعدة الباحثين ورصد الجوائز المالية للمتفوقين منهم لتشجيعهم.

ح. ربط نتائج البحوث العلمية وتطبيقها في مجالات الإنتاج المختلفة من خلال ترويج هذه البحوث ونتائجها وبيعها لوحدات الإنتاج مع تخصيص جزء من عائدها للعلماء والباحثين اصحاب هذه البحوث.

ض. تخصيص بعض أموال الوقف لاستنباط بعض الحلول العلمية المناسبة لبعض المشكلات الاقتصادية التي يعاني منها المجتمع وذلك باستخدام التقنية الحديثة مثل زيادة موارد المياه ومعالجة ملوحة الأرض والتخلص المفيد المربح من الملوثات والنفايات الضارة مثل توليد الطاقة

الكهربائية وتحويلها إلى اسمده.

غ. إنشاء المكتبات العلمية وتزويدها بأحدث الكتب والمراجع العلمية التي يحتاج إليها الباحثون والعلماء في عملهم.

رابعاً: الوقف ومعالجة مشكلة البطالة: تُعد مشكلة البطالة في الوقت الراهن إحدى القضايا الأساسية التي تواجه معظم دول العالم فهي تعد من أبرز سمات الأزمة الاقتصادية العالمية.

والبطالة هي الجزء الغير مُستغل من الطاقة الإنتاجية للمجتمع، ومن ثم فهي عبارة عن وسائل إنتاج معطلة ومهدرة.

وللبطالة عدة اشكال أهمها: البطالة السافرة أو المزمنة، والبطالة المقنعة، والبطالة الدورية أو الموسمية داخل صناعة او حرفه معينة، أو فنية تنشأ عن تقدم علمي في وسائل الإنتاج.

ويلاحظ أن القوى البشرية تعتبر الدعامة الرئيسة للنظام الاقتصادي لكل دولة من دول العالم، ولذلك تهتم الدول الساعية للنمو بدراسة هذه القوة لما لها من آثار اقتصادية واجتماعية حيث أنها أحد العوامل الرئيسية للإنتاج في البلدان.

خامساً: إسهام الوقف في المشروعات الاقتصادية: يمكن استثمار أموال الوقف في المشروعات الاقتصادية العملاقة التي تحقق أرباح كبيره، لاستغلال عائدها في الانفاق على أبواب الخير المختلفة نذكر منها:

أ. الاستثمار في مشروعات الإنتاج الزراعي مثل مزارع الفواكه والحبوب ومزارع الدواجن ومنتجات ومزارع الأبقار ومنتجات الألبان، والمزارع السمكية.

ب. الاستثمار في استصلاح واستزراع مساحات واسعة من الأراضي الصحراوية في المناطق النائية، ثم استغلالها أو بطريق التأجير او المشاركة مع الغير.

هـ. استثمار الأراضي الموقوفة داخل المدن في مشروعات الإسكان التي تسهم في حل ازمة السكن، وفي الوقت نفسه تحقق دخلاً كبيراً لصالح الوقف.

ح. استثمار أموال الوقف في مشروعات الخدمات الحديثة التي تدر عائد كبير مثل البريد الدولي السريع والهاتف الجوال المحمول والأقمار الصناعية وغيرها.

ض. صناعة وإنتاج أجهزة الحاسب الآلي وأجهزة الهاتف المحمول، والبرامج المختلفة لتحل محل البرامج المستوردة من الغرب.

النتائج والتوصيات

وفي ختام بحثي هذا أود أن أُبين بعض النتائج التي توصلت اليها، وكذاك بعض التوصيات:

١) تبين لي من خلال دراسة الوقف أنه كان يعتبر منظومة متكاملة مالية وإدارية وكانت تُعد أمواله من أهم مصادر تمويل الدولة ، وافضل دليل على ذلك تمويله لمئات المشاريع الحيوية والمهمة كما ذكرت في بحثي هذا .

٢) من خلال دراستي لمؤسسة (قارفيلد وستون) الخيرية البريطانية يتبين أن هذه المؤسسة الوقفية وغيرها مؤسسات مستحدثة وليست قديمة ، فلا يتعدى عمره هذه المؤسسات الخيرية ال (٢٠٠) عام ، ونلاحظ من طبيعة عملها أن غالب اعمالها الخيرية هو تقديم المساعدات والمعونات للفقراء ، وليس لها دور حضاري ضخم في المجتمع مثل المؤسسات الوقفية الإسلامية .

٣) لاحظنا أن للوقف الإسلامي دور حضاري ضخم كونه دخل في انشاء أمور تُعد في لغة عصرنا (مشاريع بنى تحتية) ومنها : (إنشاء المدارس العلمية الشرعية منها والعلمية البحتة ، وإنشاء المؤسسات التعليمية الضخمة (ما يوازي الجامعات منها) كذاك بناء المستشفيات ودور الايتام والعجزة ، والدخول مشاريع الخدمات ، كإكساء الطرق وشق الأنهار ، وغيرها مما قد ذكرته بحثي هذا .

٤) لا بد للوقف الإسلامي أن يرجع الى دوره السابق ليُعد من جديد مصدراً مهماً من مصادر التمويل للدولة ، وأعاد تشغيل الأموال التي تقدر بملايين الدوانم ، وآلاف العمارات والدور والمؤسسات ، ليأخذ الوقف حيزه في عملية البناء الشامل في بلداننا التي تعتمد على مصدر واحد فقط في الغالب وهو (النفط) .

٥) ذكرت في المطلب الثالث من المبحث الثاني عشرات المقترحات التي تصلح لاعتماده في التوصيات ، لتمكين الوقف الإسلامي من العودة الى ما كان عليه ، ومن أهمها استثمار الأموال الوقفية في الصناعات الحديثة والرائدة ، وتعريف الناس بأهمية الوقف واحكامه .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
١) أحكام الأوقاف للحصاف ، دار الكتب العلمية بيروت ، ١٩٩٩م .
٢) الإسعاف في أحكام الأوقاف لبرهان الدين الطرابلسي ، طبعة دار الرائد العربي .
٣) الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية لعبد العزيز الخياط ، دار المعرفة / بيروت.
٤) سنن لابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ) ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية / فيصل عيسى البابي الحلبي .
٥) شرح مختصر الخرقي لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله ت (٧٢٢) هـ ، مكتبة العبيكان / الرياض ، ١٩٩٣ .
٦) العالم الإسلامي التاريخ في الجغرافيا لياسر تاج الدين ، تعريف الحضارة وأسسها في الإسلام لطارق أشقر، دعوة لاستلهام إنجازات الحضارة .
٧) العالم الإسلامي في عصر العولمة لعبد العزيز التويجري ، عمان -الاردن: دار الشروق .
٨) فن العمارة في الحضارة الإسلامية مقال للأستاذ الدكتور راغب السرجاني على شبكة الانترنت تم الاطلاع عليه بتاريخ 11 / 1 / 2019 https://islamicarchitecture1.blogspot.com/ .
٩) تقرير البنك الدولي عن التنمية في العالم ١٩٩٥ م، ص ٢٨٠.
١٠) القاموس المحيط لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى ، ت ٨١٧ هـ، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان ، ط / ٨ ، ٢٠٠٥ م .
١١) لسان العرب لابن منظور الافريقي ت ٧١١ هـ، دار صادر – بيروت ، ط / ٣ ، ١٤١٤ هـ .
١٢) محاضرات في الوقف لمحمد أبو زُهرة، دار الفكر العربي / القاهرة ، ب.ط.ت. .
١٣) محاضرات في مدخل الاقتصاد، لمعين السيد أحمد، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، السنة الجامعية ١٩٩٩/ ٢٠٠٠.
١٤) معجم اللغة العربية المعاصرة للدكتور أحمد مختار عبد الحميد عمر / عالم الكتب ، ط / ١ ٢٠٠٨ م .

١٥) المغني لأبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي ، الشهير بابن قدامة المقدسي ، ت / ٦٢٠ هـ، مكتبة القاهرة ، ب . ط ، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .

١٦) من روائع حضارتنا لمصطفى السباعي ط٢ دمشق، بيروت ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م) .

١٧) مؤسسة قارفيلد وستون ، دراسة تحليلية لأهم ثلاث أوقاف في المملكة المتحدة ، شركة أوقاف سليمان الراجحي ٢٠١٦م.